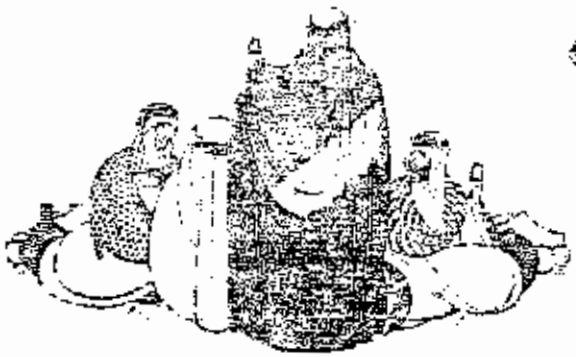

رحلة جغرافية عمرانية

لوصفي زكريا

— ٤ —

﴿ الظواهر الجوية ﴾ ان فعل الظواهر الجوية في اليمن عظيم وشديد وأكثر ما ترى هذه العظمة والشدة في قمم الجبال . فبخار البحر الاحمر والمحيط الهندي وما يتصاعد من جو تهامة اللاهب يميل دائماً للتكاثف فوق ذرى سروات اليمن ولا سيما فوق منحدراتها ومناكبها الغربية المتجهة نحو تهامة الحديدة . وكل الاماكن في تلك المنحدرات والمناكب يضربها الضباب المتلبد صيفاً وشتاء ، يحدث ذلك كل يوم من بعد الظهر الى غسق الليل وقد يدوم بضعة أيام دون انقشاع ، وقد لا ترى سماء الاماكن المذكورة صفاء الاديم خلال العام كله الا أياماً معدودات . وأروع مسارح النظر في جبال اليمن وأوديته تلك التي كثيراً ما يصادفها السائر في الطريق الصاعدة من الحديدة الى صنعاء وفي غيرها من الطرق أيضاً . فهو يشاهد أمواج الضباب من كثب وقد تحيط به وتحول دون رؤيته مناقذ الطريق فيخال نفسه غواص بحر زاخر ، او يشاهدها عن بعد بضع مئات من الامتار لم تلحق الطو الذي بلغه جامدة او منذة السير تحت أقدامه وهي غاشية التلعات والمنحدرات وحاجزة المعاطف والفجاج فيحسب انه راكب طائرة يحلق فوق الغمام وفوق أعلى القنن الشاهقة الآخذ بعضها برقاب بعض

وتبطال الامطار في اليمن عجيب . ففي أيامها بينما تكون السماء صافية الاديم في الصبح والضحى تتلبد بعد الظهر بالسحب المكفهرة القاتمة واذا بالرعود تقصف والبروق تومض قصفاً ووميضاً متواليين وشديدين يبثان الروع والوجوم واذا بالامطار تهمر بشدة كأنها من أفواه القرب وكأن فعل خيوطها ضربات السياط ، تظل على هذا المنوال ساعة او ساعتين ثم تقطع ،

فتهدأ ثورة السماء وتبقى الارض وما فيها من الجبال والاودية والقيعان رياضة فياضة بالسيول الدافقة او الغدران المجتمعة ترى انتشار قطراتها وتسمع خريرها وهديرها الى مدى بعيد مما يهيج السمع والبصر ناهيك بالطيور التي تحلق وتتقذر من لجاج الصخور وغصون الاشجار مغردة زاهية . واذا أمسى المساء تبدد الغيوم وتسطع النجوم واذا أصبح الصباح تبزغ الشمس وتتكسى اشعتها على قطرات المطر المتبقية فتظهر كالدراري اللامعات وتظهر السماء صاحية ضاحكة كأن لم يحل بالامس شيء . . . فلا يأتي الظهر الا وتعود الغيوم للتلبد والسماء للاكفهرار والرعود للدوي والامطار الى ما فعلته مساء أمس . . . وهكذا في كل يوم . .

وهذه الامطار تهطل في اليمن في مواسم معينة تخالف ما في الشام وأشباهه من الاقطار . فهي تبدأ في شهر مارس وتدوم حتى سبتمبر ومن عادتها انها تقل في مايو ويونيو وتشتد في شهري يوليو واغسطس وانها — كما قلنا — تمطر في الغالب من وقت الزوال الى أخريات النهار

بيد ان الامطار قليلة او هي أقل من الحاجة في اليمن . فهو على الرغم من حوطته بالبحر الاحمر والمحيط الهندي في غربيه وجنوبه ومن ان الجبال الجنائبة السحب ممتدة في أكثر مساحته ليست أمطاره غزيرة بقدر غزارتها في المناطق المماثلة له في العرض والوضع الجغرافيين في آسية وافريقية . وهذه القلة هي التي دعت سكان اليمن الاقدمين — وهم الذين آثارهم تدل على انهم كانوا أيقظ وأنشط من سكانه الحاضرين — الى ان يخزنوا السيول الفائضة في موسم الامطار ولا يضيعوا قطرة منها بفضل الاسداد التي شادوها وقد تقدم ذكرها

واذ كانت صخور اليمن البركانية الجرد الصم غير صالحة لخزن المياه في أجوافها بالقدر الكافي لاسالة الانهر العظيمة لا نجد في اليمن امثلة لانهار البلاد الجبلية كما في الشام والاناضول وجل ما هنالك ينابيع وعيون ثرة تتدفق هنا وهناك بمقادير لا تزيد في أكبرها عن خمسين ليتراً في الثانية تنجري في الاودية التي تقدم الكلام عنها ان كانت بين الجبال او تجري في قنوات أو مجار مسدودة او مكشوفة يدعونها « غيول » جمع غيل ان كانت قرب القرى والمدن ينهلون منها ويروون بها مساحات يسيرة من الارضين أحياناً

على أن مقادير المطر في العصر الاخير صارت اقل مما كانت عليه في العصور الخوالي ، يظهر ذلك للبحث في كثرة السيول والاودية الجافة او الجارية وعمقها المتناقص . ولم يسجل ميزان المطر في مرصد صنعاء الجوي [1] سنة ١٩٣٥ اكثر من ٣٠٠ ملمتر . وهذا المجموع العائد لسنة واحدة

(١) وضع هذا المرصد العالم الالماني راتجنس الموفد من جامعة هامبورغ سنة ١٩٣٣ وقد مكث ورفيق له في اليمن سنتين يبحثان ويحرسان آثاره الجيدية وتشوقه الجغرافية والطبيعية التي امكنهم الوصول اليها ورضا كتاباً نفيساً عن نتائج ابحاثهما

وان لم يكن كافياً للاعتداد به ، لكن بقية السنين لا تكون فيها الزيادة على ما يظهر اكثر من نصف او ثلثي المجموع المذكور، وهو يعد قليلاً على كل حال اذا قيس بجفاف اقليم اليمن وجفاف صخوره وتربته . ولا يزال شيوخ صنعاء يذكرون بحسرة آبار النيول بالماء . وقد كانت مثلاً قبل ٤٠ — ٥٠ سنة تروي في شمالها مساحات واسعة في قرى شعوب والروضة والجراف ، فاصبح الآن بعضها جافاً كل الجفاف وبعضها تناقص الى ثلث او نصف مقدارهِ السابق فصارت تلك المساحات غامرة باسرة بعد ان كانت زاهرة ناضرة. ولم يتسع لي الوقت للاهتداء الى اسباب هذا التناقص أكان من اسباب بيولوجية بحكم وفرة الزلازل وتوالي تصدع الارضين وغور الينابيع ام من الفلك بالحراج واستئصال الاشجار خلال الحروب والفتن التي لم تنقطع في اليمن الا منذ عهد قريب أم من عوامل جوية وفلكية ؟

ولما كان القطر اليماني قريباً من خط الاستواء تختلف فصول السنة الاربعة فيه عن نظائرها في الاقطار البعيدة عنهُ . ففي اليمن يكون الربيع في اشهر يناير وفبراير ومارس والصيف في ابريل ومايو ويونيو والخريف في يوليو واغسطس وسبتمبر والشتاء في اكتوبر ونوفمبر وديسمبر . واليمانيون لا يستعملون في التوقيت الا الاشهر القمرية العربية ، فهم لا يعرفون اسماء الاشهر الشمسية الافرنجية ولا السريانية . واذا ارادوا التوقيت على الحساب الشمسي لمعرفة مواعيد الزراعة استعملوا اسماء البروج التي تنقلب فيها الشمس . فيأتي فصل الربيع عندهم في بروج الدلو والحوت والحمل والصيف في الثور والجوزاء والسرطان والخريف في الاسد والسنبلة والميزان والشتاء في العقرب والقوس والجدي . ويستعملون اسماء منازل القمر وهي مجامع النجوم التي ينقلب فيها القمر وعدتها ٢٨ منزلة وهي الشرطين والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك . ولهم في تعيين مواسم الزراعة اصطلاحات غريبة كالفارع والشتا والصواب والظلم والصلم والطب وسهيل وعلان والروابع الاولى والاخرى وامثالها مما يطول عده وشرحه

واذ كان القطر اليماني في داخل المنطقة الحارة يحصل في حياله وتهائمه ما يحصل في بقية البلاد الداخلة في المنطقة المذكورة من حر وقر قد يكونان شديدين في بعض الاماكن والفصول .

(١) ابن الهمداني يقول بتأثير الزلازل في تقليل مياه اليمن . قال في كتابه الاكليل ج ٨ ص ٨٨ عند كلامه عن جبل وادي سهر . (وكان هذا النيل في الجاهلية على ضعف ما هو عليه اليوم حتى وقعت في اليمن زلازل قطعت بعض ماءاته)

والحرارة تتبع العلو عن سطح البحر ، فهي شديدة في تهامة وضيفة في الجبال . ويضاف في اليمن إلى اختلاف الحرارة بين الجبال والتهائم بل بين مكان وآخر في الجبال والتهائم نفسها اختلافها أيضاً في ذات المكان وفي كل يوم بين الصباح والظهر والمساء وبين الهزيع الاول والثاني من الليل. ثم ان الضباب الذي لا ينقطع انتشاره في الاماكن المتجهة الى الغرب في ظهر السلة والمطر الذي لا ينقطع تهطاله في موسمه بعد الظهر من كل يوم يسببان حين تدومهما هبوطاً في درجة الحرارة تكون فجائيًا ومؤثراً . وهذا الهبوط يلجئ اليمانيين ولا سيما أهل المدن منهم الى تغطية رؤوسهم وظهورهم بالملحفة وهي قطعة نسيج من الصوف مستطيلة واسعة لا بد لكل يماني ان يحملها صيفاً وشتاء على منكبه ، فهم يلتحفون بهذه الملحفة ويتدثرون بالقرو ويهرعون الى مساكنهم ويمكثون على تخزين القات وشرب منقوع قشر البن الساخن دفئاً للبرد الذي يخشونه كثيراً

وكلما ابتعد السائر من الساحل ومشى نحو جبال الداخل يشعر بالانتعاش من خفة الحرارة والرطوبة وتناقصها التدريجيين ومن ازدياد الجفاف . وهذا الجفاف البالغ حده الاقصى في اقليم الجبال يؤثر وينفع في فناء بعض الميكروبات او عدم نموها وتكاثرها . والضباب يكاد لا يحدث في صنعاء ، لجوها شديد الجفاف لا يعرف الرطوبة الا قليلاً في موسم الامطار كما انها لا تعرف الحر ولا البرد الشديدين . فهواؤها سجسج عليل في أكثر الايام . ودرجة الحرارة في موسم الصيف وقت الزوال تختلف بين ٢٥ و ٢٧ . وفي الصباح بين ١٢ و ١٣ واشد ايام البرد فيها من عشرة اكثر الى منتصف يناير . وهو مهما يشتد لا يهبط الى تحت ٣ تحت الصفر ويعود للارتفاع في النهار الى ١٥ او ٢٠ واكثر مدن النجد اليماني العالي وقراه على هذا المنوال من الاعتدال اللطيف . وإذا هبطت الحرارة الى الصفر وتحته يتجمد البرد على الماء زرداً وقد ينزل الجمد المعروف بالبرد وقد تكون حباته كبيرة كالبندق او الجوز ، وقد يبقى هذا البرد على وجه الارض بضعة ايام دون ان يذوب . وزعم بعضهم ان الثلج المعروف في جبال الشام يهطل على قمة جبل النبي شعيب (٣٥٠٠ متر وهو اعلى قمم اليمن طرًا) ولم يتحقق ذلك . ولو كانت نجود اليمن وجباله في عرض القطر الشامي لغمرتها الثلوج واستحال العيش فيها كما استحال على ما هو اعلى من ١٥٠٠ متر في بلاد الشام

(الاقليم) يراد بالاقليم مجموع الظواهر الطبيعية والكيماوية الحادثة في جو مكان ما وارضه. ويهتم الباحثون بهذه الظواهر لانها من اشد العوامل تأثيراً في حياة حيوان ذلك المكان ونباته وفي درجة نموها وارتقائها . فاليمن في جملته ذو اقليم عجيب يختلف كل الاختلاف عن بقية الاقاليم للعروفة . وشكل ارضه وارتفاعها كلما تبدلا امام السائر من الساحل الى قمم الجبال تتبدل معهما رقة الهواء وخفه ونقاوة الماء وطعمه . فنشأ بحكم ذلك التبدل اقليمان مختلفان احدهما حار خاص بتهامة والثاني بارد او معتدل خاص بالجبال . ثم إن كلاً من هذين الاقليمين ايضاً يحوي

اقاليم عديدة لاختلاف الارتفاع والانخفاض والانحياء والانبساط اختلافاً بارزاً في رقاعه المتصلة

فشروط الحياة والمعيشة التي تتغير بتغير الظواهر الطبيعية والكيمياوية في تلك الاقاليم اوجبت ايضاً تغير اشكال النباتات والحيوانات والوانها في كل مكان . لهذا تجد في اليمن اعشاباً واشجاراً وازهاراً وأثماراً من التي تنشأ وتنمو عادةً في المناطق الحارة والباردة وما بينهما من المناطق المعتدلة . لكنك كلما صعدت من أسفل إلى أعلى وكلما جلت من اليمن إلى اليسار رأيت اجناساً من النباتات وأنواعاً ومزيت اشكالاً والواناً وروائح تختلف ولو قليلاً عما رأيتهُ ومزتهُ منها في مكان آخر من اليمن نفسه . ناهيك باختلافها عما في بقية الاقطار كالشام والاناضول مثلاً . وأكثر الفصائل النباتية المعروفة في بقية الاقطار الشرقية والغربية لها افراد وجماعات في اليمن . لكن هذه تختلف نوعاً عن نظائرها في تلك الاقطار باللون والحجم والطعم . فالحرنوب مثلاً ويدعونهُ في اليمن قرنيط اصغر ورقاً وارفع قروناً وأقل حلاوةً من خرنوب جبال الشام . ومثل ذلك التين ويدعونهُ البَلَّس فهو لا يكاد يؤكل من رداءته . وعلى ذلك قس بقية الاثمار من مشمش وتفاح وسفرجل وليمون وغيرها . فقد اثر فيها الاقليم وانخفض جودتها ، حاشا العنب فان انواعه في غاية من الطيبة

ويختلف حيوان اليمن ايضاً عن امثاله في بقية الاقطار . فبقره مثلاً ذو سنام ضخم يتدلى فوق اعلى الكاهل ، والعراب من خيله ذات مزاج عصبي شديد ، لا تسير الا قفزاً ووثباً ، وجمله رفيع القوائم صغير الجثة لا يحمل الا اثقالاً خفيفة ، وغنمهُ عديم الصوف او قليله تحيل الحصر ، وبشره اقرب الى قصر القامة وصغر الهامة وهزال الجسم وشحوب اللون ورخاوة المزاج منهُ في بشر سائر الاقطار العربية

ناهيك بزي اهل اليمن في الاكتساء والاحتذاء وفي المذاهب والمشارب وفي الاطوار والعادات . فان لكل من اقاليم تهامة والجبال فروقاً بارزة في هذه الشئون . فجميع سكان تهامة وبعض سكان الجبال نصف عراة بينما سكان المدن وبعض اهل القرى يكتسون وقد يتدثرون بالفرو . والتهامي يعجز عن توقل عقبات الجبال والقفز بين صخورها ومنحدراتها الكأداء شأن اهل الجبال ، كما ان الجبلي تخور عزائمه اذا اضطر للغوص في رمال التهائم . وابن هذا الوادي يصغ اذا صعد الجبل الذي فوقهُ ، وابن ذاك الجبل يتلظى اذا هبط الوادي الذي تحته ، وكل منهم راض بما قدر له ، لا يمكن لاحدهم ان يقاتل الثاني الا اذا استدرجهُ الى أرضه . وصف الهمداني هذه الحالة في « صفة جزيرة العرب » فقال مثلاً عن جبل تخلى : ومن ولد في رأسه فقيع غير صحيح وخاصة النساء ومن ولد في صفحه فصيح غير فيح ، وطباع سكنه وأهله يخالف طباع من في صفوح في العقل والنجدة والطول . اه

(عالم النبات) قلنا ان اكثر الفصائل النباتية المعروفة لها افراد وجماعات في اليمن — حاشا الصنوبرية فاني لم أر لها اثراً الا عدداً قليلاً من السرو في صنعاء وذمار جلبهُ الترك في زمنهم فيها وقد أخذت معي الى اليمن في ما اخذتهُ من مختلف الاشجار المثمرة وغير المثمرة مئات من غرس السرو الاهرامي والاتني والصنوبر المثمر والصنوبر البري المعروف بالحلبي والصنوبر والآروكاريا والكازوارينا، غرست ذلك في اماكن مختلفة من صنعاء، فان ابقوا عليه وعنوا به ازدان نجود اليمن وجباله بهذه الاشجار الجميلة. وتضيق هذه المجلة عن تعداد نباتات بلاد اليمن وذكر اسمائها المحلية وقد عني بهذا الامر فيما مضى العالم النطيمي الشهير فورسكال احد اعضاء البعثة العلمية الدانماركية التي وفدت برئاسة نيبوهر الى اليمن سنة ١٧٦٣م (١١٧٧ هـ) وقد توفي فورسكال وقتئذٍ في بلدة بريم. ودرج العالم النباتي الالماني شوينفورت في كتابه المسمى (الاسماء العربية لنباتات مصر والجزائر واليمن) المطبوع في برلين سنة ١٩١٢ ما ذكره فورسكال من النباتات بحسب اصطلاح اليمانيين. ولم يخل الترك في زمنهم من عالم يعنى بدرس احوال اليمن من النواحي الطبية ولا سيما بدرس نباتاته، ومنهم الطبيب امير اللواء ابراهيم عبد السلام باشا صاحب كتاب (الرحلة اليمانية والجغرافية النباتية في اليمن) طبع الاستانة سنة ١٣٢٤ هـ والعالم الالماني رانجيس عني ايضاً بنبات اليمن. وفي كتابه جداول توزيع فصائل النباتات اليمانية بحسب ارتفاعات اماكنها عن سطح البحر

والذي يسترعي النظر في اليمن ولاسيما في الجبال هو اشجار الفصيلة الشائكة وانتشارها بكثرة هائلة يكاد لا يرى غيرها ومثلها الاشجار اللحمية الشائكة ذات العصارة اللبنية. والاولى تنتسب للفصيلة القرنية والثانية للفصيلة الاوفوربية فمن الاولى الانواع الآتية نذكرها مع اسمائها اليمانية:

سلم سلام «السنط»	Acacia arabica	قتات	Acacia senegal
صنق	„ asak	سيال «في مصر طلح»	„ seyal
سيلام	„ flava	حارس	„ tortilis
سمر	„ spirocarpa	طلح	„ abyssinica
عليه	„ mellifera	الضهى	„ glaucophylla
عرفطه	„ nubica	دفران	„ fruticosa

ومن الفصيلة القرنية ايضاً السدر Ziziphus spina Christi والسنا cassia abus والشرق cassia obovata وغيرها مما لا يتسع المجال لذكره

ومن الفصيلة الاوفوربية الانواع الآتية :

عُشَق	Euphorpia Ammak		خريش	Euphorpia marticulata	
كلخ ، غلق	„ cactus		سيسب	„ monticola	
شرور	„ fruticosa		قصاص	„ polycantha	
ام اللبن ، مليئة	„ granulata		سليع	„ peplus	
رميد	„ schimperi				

ونغني عن البيان ان الفائدة الاقتصادية من هذه النباتات معدومة او يسيرة . فلا يفيد بعضها الاّ للاحتطاب . ومن المؤسف ان يكون الفطر النباتي محروماً من الحراج التي لا يخلو منها اشاله من الاقطار الجبلية . ويظهر ان الحروب والفتن التي لم تنقطع من اليمن الاّ امداً قريباً قضت على حراجه وجردت معظم جباله فلم يبقَ فيها من الاشجار والاحجم البرية الاّ ما هو قليل النفع قليل الالتفاف منتشر في مناكب الجبال ومنحدراتها وحول الاودية على حالة متفردة او على هيئة ادغال قليلة الكثافة واشجارها من الصفا الشائكة التي عددناها وليس في اليمن من الاشجار الصالحة للتجارة والبناء سوى (الاثل) — Camarix nilotica الذي يغرسونهُ في صنعاء بكثرة حول البساتين او كنايات صناعية ، وشجر آخر يحصل في الجبال يدعونهُ (طنب Cordia abyssinica) لا بأس بصلابته ، لولا ضمورة عمله وقلة وجوده وبليها من ذوات النفع القليل شجر الطالوق Ficus vesta يشبه جميز مصر والشام بضخامته ، لكن ثمره لا يؤكل وخشبه قليل الصلابة والنفع ثم الطلح والسدر وامثالها

وفقدان الحراج والاشجار الصالحة للصناعة يضطر اليمانيين لجلب اخشاب النجارة من البلاد الاجنبية واضاعة قسم من ثروتهم الضئيلة في سبيل شرائها . وهذا ما استوقف نظري حين شروعي بادارة الاعمال الزراعية فاستجلبت لهم من مشاتل ايطاليا مئات من اشجار الحراج التي تنمو في الاماكن الجبلية كالسنديان Quercus pedunculata والتيقب acer platauvides والسويد Ulmus campestris والدلب Platanus orientalis وأنواع الصنوبريات التي تقدم ذكرها ، ناهيك الاوكاليبتوس والكاتالبا والآكاسيا وغيرها مما يصلح للزينة ايضاً . غرست بعضها لاجل التجربة في مناكب جبل نقم المشرف على صنعاء وبعضها في صنعاء والقرى المجاورة لها . ولعلهم اذا عنوا بها وفاقاً لما علمتهم وكتبت واستكثروا من التي تنجح تجربتها عندهم يرون منافعها في المستقبل ويحدثون منها حراجاً تغنيهم عن جلب الخشب من الخارج